اخترنا
للجندي

دورنا الجديد
في الحضارة الانسانية

بقلم: أنور الجندي

بسم الله الرحمن الرحيم

هناك « حقيقة » واضحة لا سبيل الى انكارها ، ما احوجنا الى ان نذكرها دائما ، ونذكرها اليوم ، ونحن نبنى « امتنا الكبرى » ، هذه الحقيقة هى ان لنا « شخصية » واضحة الملامح ، عميقة الجذور ، تكونت منذ عهد بعيد ، وكان قوامها الفكر الواضح والتراث الذى مازال حيا يتفاعل وينمو ، ويرتبط بحاضرنا ارتباطا وثيقا .. وان هذه الشخصية تستيقظ اليوم بسرعة وتشق طريقها الى مكانتها بقوة ، وانها ستكون فى القريب ذات دور فعال فى بناء « الحضارة الانسانية » .

لقد عاشت شخصيتنا حية لم تمت،وان اصابها الضعف فترات متباعدة ، ثم استيقظت مرة أخرى ، وعادت الى القوة والتألق والبروز ، كان مسرح حركتها وحياتها دائما فى هذه المنطقة ، ذات الملامح الموحدة ، فيها الحيوية والبساطة والانطلاق ، والكرامة والايمان بالكيان ، والذود عنه .

وقد كانت شخصيتنا على طول المنطقة المتشابهة « الوسطى » أشبه بالساحل القوى الذى يفتح الابواب لكل النظريات والدعوات

والتيارات الواردة من الشرق او الغرب ، دون أن تستطيع واحدة منها ان تقضى على كياننا أو تدمر حياتنا .

كانت النظريات والتيارات الجديدة الواردة من الشرق او الغرب تواجه حياتنا فنسيغ منها ما يتفق مع كياننا ، بعد ان نحوله الى طبيعتنا ، لم نكن نستسلم مطلقا لهذه المذاهب أو الدعوات ، او تتميع فى بوتقتها ، بل كنا نغربلها ونذيبها فى أعماقنا ونظل مع ذلك أقوياء ، لم يتغير لوننا ولا طابعنا ولم تتحول روحنا ولا كياننا ، من تأثير الجديد الوافد .

كيف حافظنا اذن على طابعنا ، مع اننا لم نكن متعصبين بالصورة التى ترفض الجديد ، ولم نكن متسامحين بالصورة التى تجعلنا نذوب فى مذاهب الآخرين ودعواتهم ؟.

السر ، هو أن لنا ينابيع فكرية خالصة لها ملامحها وطابعها وجوهرها ، هى التى كانت تعطينا دائما وحدة الفكر ، هذه الينابيع مازالت حية تنبض بالحياة ، ربما اطلق عليها البعض اسم « التراث » او « الميراث » ، وربما أعطت هذه الكلمات صورة الشيء الأثرى المخزون فى المتحف ، ولكن ينابيعنا لم تتوقف قط خلال الف وثلثمائة وثمانين عاما عن التدفق ، وهى من اتساع النطاق كالشرايين ، لم تدع قطاعا من قطاعات الحياة او مجالات الفكر (او الاجتماع أو السياسة أو الاقتصاد) الا ولها فيه

رواسب حية تتفاعل ، ومن هذه الينابيع يتكون كياننا الذى يمثل قاعدة حياتنا .

هذه هى قاعدة الاساس التى عشنا نبنى عليها تطورنا وننشىء على دعائمها نهضتنا ، وهى التى حمت قوانا من ان تتبدد ، وشخصيتنا من أن تتوه فى تحولات الزمن وتطورات الحضارة ، وهى سر انتصارنا فى كل معاركنا القديمة مع التتار والصليبيين ، ومعاركنا الجديدة مع الاستعمار والصهيونية والنفوذ الأجنبى .

وقد ظلت هذه الينابيع حية ، فاذا أصابها الضعف ، لم نعدم مصلحا يرفع صوته ، فيصلح الطريق ، ويزيل السدود ، ويكشف طبقة الرماد ، ويزيح الصدأ ، فاذا الينابيع تتدفق من جديد ثرة قوية ، واذا بشخصيتنا تكشف عن ملامحها الاصيلة مشرقة باهرة .

ومهما اختفى طابع شخصيتنا الحقيقى فترة تحت ركام من نفوذ غاصب ، او سلطان متحكم ، فانه لا يلبث ان يبدو من جديد ، وسرهذا كله هو ايمان أكيد يتوارثه الاجيال بأن لنا ينابيع أساسية ذات أصالة ، لا تمتنع عن ان تلتقى بروافد الشرق والغرب ولكنها تظل محتفظة بقيمها الاساسية ، لا تعطى أحدا مهما علا الحق فى ان يشوه مصادرها .

فنحن نفتح نوافذنا على كل الثقافات ولكننا لا ندع احداها تقضى على ينابيعنا أو تشوه شخصيتنا ، ونحن نمضى مع ركب

الحضارة الى أقصى مداه ، فكرا وصناعة واختــراعا ، ولــكنا لا ننطوى ، ولا ننحرف ولا نذوب ، ولا نكون اتباعا لأحد، فقد عشنا كراما وسادة وقادة ، وساهمنا فى بناء الحضارة ، وانشــاء الثقافة ، وقدمنا للدنيا عصارة فكرنا ، وذوب روحنا ، ومازلنــا أهلا لأن نعطى الانسانية الحائرة هداها ، والحضارة المضــطربة سنادها ، والفكر البشرى قيمه ومثله .

وفى أحلك ساعات الضعف ، وأقسى ساعات التأخر لم تكن القوى الغالبة بقادرة على أن تجعلنا تتحطم او ننطوى او ننصهر أو نذوب .

لماذا استطعنا الصمود ؟ لأننا آمنا بأمرين :

ان لنا ينابيع أصيلة ثره ، وان لنا شخصية واضحة الملامح .

وليست ينابيعنا تراثا ميتا من تراث المتاحف ، ولــكنها مورد يتدفق ، حياة ويرتبط بالحياة والفكر ، ولا يتخلف عن التطــور، ولا يعارض النهضة .

* * *

ومن أى طريق وردت هذه الينابيع وجدت اتنفاضة الحياة .

فهذا « مسلمة بن عبد الله » يحاصر حصنا فى معــركة فتــح دمشق فيندب النــاس الى (نقب) يدخل منــه فارس فيفتــح للمحاربين بوابة الحصن ، فما من متقــدم الى الحصن الا ويرده

سيل النبال ، وفجأة ، يتقدم رجل نحيل ، فيـندفع على فرسـه لا يبالى النبال حتى يدخل النقب ويفتح الباب للمجاهدين ، فما تنتهى الحرب حتى ينادى « مسلمه » يسأل عن صاحب النقب فما يتقدم اليه أحد ، واذا هو يغريه بالجزاء ، ثم يتوعده بالعقاب فما يفلح فى أن يصل اليه .

وعلى حين غرة ، يتقدم رجل الى خيمة الأمير ، ويقول : لو انك عاهدتنى على ألا تسألنى عن اسمى لأخبرتك عن صـاحب النقب .

قال مسلمة : أعاهدك ...

قال : انا هو ...

ثم يقوم فيخرج من الخيمة ويذوب فى غمار الناس ، ويدهش مسلمة من أمر بطل يريد ان يكون عمله خالصا مجردا من الشهرة فلا يجد من نفسه بعد كل صلاة الا ان يقـول فى دعائه : اللهم اجعلنى مع صاحب النقب .

❋ ❋ ❋

فاذا ذهبت مع سعد بن أبى وقاص القائد المحارب فى معركة القادسية ، وهو نائم على صدره لمرض اصابه يرمى بالرقاع الى من يلونه ويطل على المعركة من عل ، وقد حبس ليلتـها « أبو محجن الثقفى » الفارس البطل لأنه شرب الخمر ، فما يرى أبو محجن

ميمنة الجيش تضعف ، حتى يستأذن زوجة سعد ، ويطلق نفسه من عقاله ، ويركب « البلقاء » فرس خالد ، ويندفع يزلزل كالصواعق ، وينظر سعد فيعجب :

ما هذا الفارس الذى حول الهزيمة الى نصر ، وبينه وبين نفسه يهمس :

الضرب ضرب أبى محجن والفرس هى البلقاء ، ولولا انه فى محبسه لقلت انه هو ، فما تنتهى الحرب ، حتى يعود ابو محجن فيضع نفسه فى القيد ، ويتحدث سعد عن النصر ، ويذكر ما رأى فيعرف ما فعل ابو محجن ، فيحضره مزدهيا مفاخرا ويقول له : والله لن اضربك الحد ابدا مهما شربت الخمر ، فيقول ابومحجن: وانا والله لن أشربها ابدا ، فقد كنت أشربها انفة ، حتى لا تقول العرب اننى أخاف الحد ، وانا اليوم اتركها رغبة فى ان يقولوا : خاف الله .

***

وصورة أخرى من ينابيعنا ، لا تجدها فى ينابيع أخرى ، عليها طابعنا فى البطولة ، فهذه هى الجنود الفاتحة تصل الى شاطىء دجلة ، وترى على الشاطىء الآخر درة الامبراطورية الفارسية « المدائن » فى عظمتها وقصر كسرى فى بهائه ، فماذا يفعلون وقد أبعد العدو كل أدوات العبور ، وانتهى الرأى الى العبور على الخيول ، تقدم عاصم بن عمر ومعه ستمائة من أهل النجدة ،

ساروا حتى بلغوا شاطىء دجلة ، يريدون أن يعبروا أولا ليحموا الشاطىء من الجانب الآخر فلمـا وجد بعض رجاله يترددون تلا قوله تعالى « وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا» ثم رفع رأسه فاقتحم النهر واقتحمه زملاؤه ، فلما رأى القعقـاع ابن عمرو الكتيبة الاولى تتقدم فى سبحها ونظر فاذا الفـرس فى الجانب الآخر يتأهبون لردها ، امر سائر أصحابه الستمائة فدفعوا خيولهم الى النهر فدخلوه كما دخله عاصم واصحابه،وتولى الفرس العجب لهذا الصنيع ، فلما رأوا عاصما واصحابه يتوسطون النهر ارسلوا فرسانهم ليمنعوهم من الخروج وليقاتلوهم فى الماء ورأى عاصم ذلك فقال لأصحابه : الرماح .. الرماح..اشرعوها وتوخوا العيون .

وخرجت « كتيبة الأهوال » سالمة ..

* * *

ماذا تعطى هذه الصور من تفسير ان لدينا عشرات الصور من هذا النوع ، وكلها تعطى صورة البطولة مع انكار الذات ، والقوة مع السماحة والرحمة ، والقدرة على اداء الواجب فى مجال البطولة بالرغم من كل قيد .

(٢)

واذا مضينا نرد ينابيعنا فى مجال العلم وجدنا روحا عالية من البحث والتحقيق ..فهذا الامام البخارى يقوم من الليـــل مرات متعددة فياخذ القداحة فيورى نارا ويسرج ، ثم يخــرج أحاديث فيعلم عليها ، ثم يضع راسه ، قيل وفى ليلة كان البخارى قد تعب من تصنيف كتاب التفسير فاستلقى على قفاه ، فقال له محمد بن حاتم : سمعتك يوما تقول : انى ما أتيت شـيئا بغـير علم قط مذ عقلت فاى علم فى هذا الاستلقاء ؟ قال البخارى : أتعبنــا أنفســنا اليوم،وهذا ثغر من الثغور خفت أن يحدث حدث من أمر العدو،.. فاحببت ان استريح وآخذ اهبة لذلك .

وقد مضى «البخارى» فى الآفاق يجمع الاحاديث ويحققها ، وكذلك كان علماؤنا فيروى السيوطى فى حسن المحاضرة ان جابر ابن عبد الله عندما بلغه ان عند عبد الله بنأنيسالجهنىالانصارى حديثا فى القصاص عن رسول الله .. قال جابر : فخــرجت الى السوق فاشتريت بعيرا ثم شددت عليهرحلا ثمسرت اليه منالمدينة شهرا فلما قدمت مصر ، سألت عنه حتى وقعت على بابه فســلمت

فخرج الى غلام اسود ، فقال من أنت ؟ قلت جابر بن عبد اللـه فدخل عليه فذكر ذلك فقال : قل له : صاحب رسول الله ؟ فخرج الغلام فقال ذلك ، فقلت : نعم ، فخرج الى والتـزمنى والتزمتـه فقال : ما جاء بك يا أخى ؟ قلت حديث تحدث به عن رسول الله فى القصاص لم يبق أحد يحدث به عن رسول الله غيرك ، أردت أن أسمعه منك قبل ان تموت أو أموت .. »

هكذا والى هذا الحد كانوا يحرصون على «تحقيق النص».

❋ ❋ ❋

ولقد كانوا يقدرون العلماء حتى ان الرشيد كان يصب الماء على يدى ابى معاوية الضرير بعد الطعام ، قال ابو معاوية : أكلت مع الرشيد يوما فصب على يدى الماء رجل ، فقال لى يا ابا معاوية، اتدرى من صب الماء على يديك ؟ فقلت : لا ، يا امير المؤمنين ،قال انا ، وقد فعلت ذلك اجلالا للعلم .

وحكى الشعبى أن « زيد بن ثابت » وكان من الموالى ركب فدنا منه عبد الله بن عباس فأخذ بركابه فقال لا تفعـل يا ابن عم رسول الله . فقال عبد الله : هكذا أمرنا ان نفعل بعلمائنا .

وعن خارجة بن زيد بن ثابت قال كان زيد اذا سئل عن شىء قال : هل وقع ؟ فان قالوا لم يقع ، كان لا يفتى حتى يقع ..

وقد لدغت العقرب « مالك بن أنس » وهو فى حلقته يحدث فلم يغير مجلسه وقال : انما صبرت اجلالا للعلم. وجاءه رجل يحمل مسألة من بلد على مسيرة ستة شهور فقال له : لا أحسن .

وفى الاثر : العلم علمان : علم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم ، وعلم فى القلب فذلك هو العلم النافع ، وقيل لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا لتصرفوا به وجوه الناس .

وقيل ان الشافعى كان يجلس للعلم فى حلقته اذا صلى الصبح فيجيئه أهل (القرآن) فيسألونه ، فاذا طلعت الشمس قاموا ، وجاء أهل (الحديث) يسألونه ، فاذا ارتفعت الشمس قاموا ، ثم تستوى الحلقة للمناظرة والمذاكرة ، فاذا ارتفع النهار تفرقوا ، ثم جاء أهل اللغة والعروض والشعر والنحو حتى يأتى المساء والشافعى جالس فى حلقته .

* * *

وجاء الخليفة المنصور الى موسم الحج فلقى «مالك ابن أنس» عالم المدينة فقال له : لم يبق عالم غيرى وغيرك ، أما أنا فقد اشتغلت بالسياسة ، فاما أنت فضع للناس كتابا فى الفقه ، تجنب فيه رخص ابن عباس ، وتشديدات ابن عمر ، وشواذ ابن مسعود ووطئه توطيئا ، قال فعلمنى كيفية التأليف . فلما عاد فى الموسم التالى واجتمع به قال المنصور :

انى عزمت ان آمر بكتبك هذه التى وضعت — يعنى الموطأ — فتنسخ نسخا ، ثم أبعث الى كل مصر من امصار المسلمين نسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوها الى غيرها .

قال مالك : لا تفعل ، فان الناس قد سبقت اليهم اقاويل : وسمعوا احاديث ورووا روايات ، واخذ كل قوم بما سبق اليهم وعلموا به وان ردهم عما اعتقدوا شديد ، فدع الناس وما هم عليه ..

وما كان أرضى لنفسه لو كان طامعا فى الشهرة ان تنشر آثاره فى كل مكان ولكن مكانة العلم كانت عنده أعز مكانا ..

وقيل لدعفل النسابة : بم أدركت ما ادركت من العلم ؟.

قال : بلسان سؤول وقلب عقول .

وقيل : لا يزال المرء عالما ما طلب العلم فان ظن انه علم فقد جهل .

وقال الخليل بن احمد : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ..

ويقول ابن سيرين : العلم أكثر ما يحاط به فخذوا من كل شيء أحسنه .

وقال زياد بن مالك : كن عالما او متعلما او مستمعا واياك والرابعة (ادعاء العلم) فتهلك .

* * *

(٣)

ثم تبدو روح شخصيتنا،وطابع فكرنا واضحا فى طريقةمعالجة الأمور : ((الدال على الخير كفاعله ، المؤمن مرآة أخيه ، المستشير معان ، والمستشار مؤتمن ، رحم الله رجلا سمحا اذا باع ، واذا اشترى واذا اقتضى ، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، من فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة ، أبغض الرجال الى الله الألد الخصم (١) ، حق الطريق كف الاذى وغض البصر ورد السلام وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، لا يقضين احدكم بين اثنين وهو غضبان ، لا يقيمن الرجل الرجل من مجلسهولكن تفسحواوتوسعوا، لا يتناجى اثنان دون الآخر ، يسلم الصغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير ، ليس الشديد بالصرعة وانما الشديد من يملك نفسه عند الغضب ، ما اكتسب ابن آدم افضل من عقل يهديه الى هدى او يرده عن ردى . ان الله يحب اذا خرج احدكم لاخوانه ان يتجمل لهم . الاخلاص فى السر والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، يسروا ولا تعسروا ، بشروا ولا تنفروا ، انما الصبر عند الصدمة الأولى ، اليد العليا خير من اليد السفلى ، ما اعطى احد عطاء خيرا واوسع من الصبر ، ان لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا ، فاعط كل ذى حق حقه ، فى كل ذى كبد رطبة اجر .

(١) يقصد من يكون لددا فى خصومته .

من كتم سره كان الخيار فى يده ، خذوا بحظكم من العـزلة ، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، اذا رأيتم اخا لـكم فى زلة فسددوه ولا تكونوا اعوانا للشيطان عليه .. »

هذه صورة ضميرنا ، تهتز لها النفس ، حين تراها حية نابضة على مر الزمن ، لم تتغير ، فيها الوضوح والصراحة،وفيها السماحة والكرامة ، وفيها الرجولة والشهامة ، وفيها اليقظة والحذر ، ومن عصارة هذه الينابيع قامت تلك الصورة الرائعة من صور بطولاتنا وامجاد تاريخنا وقدرتنا على المقـاومة لـكل غاز ، وقوتنـا فى المحافظة على طابع شخصيتنا .

وفى عشرات من كلمات نوابغنا نرى هذه الصورة فعبـد الله ابن عمر مثلا يرى أعظم الخلال حسن خليقه وعفاف طعمه وصدق حديث ، وترى الحسن يقول : ان مداراة الناس نصف العقـل ، والقصد فى المعيشة نصف المؤونة ويتحدث ابن المقفع عن الصـبر فهو عنده صبران : صبر الرجل على ما يكره وصبره عما يحب ، والمجرب المحارب الظافر دائما «خالد بن الوليد » يقول ان المعونة تأتى على قدر النية والأجر على قدر الحسبة ، ويرى الامام «على» ان الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد . اما عمـر بن الخطاب فانه يقظ لكل أمر يقول : من كتم سره كان الخيـار فى يده ، ومن عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء الظن به .

وكان عمر اذ رأى شابا منكس الرأس صاح به ارفع رأسـك فان الخشوع لا يزيد على ما فى القلب فمن أظهر للنـاس خشوعا فوق قلبه فانما اظهر للناس نفاقا الى نفاق .

فاذا بلغت أمر الذكاء والكياسة سمعت العباس بن عبدالمطلب وهو يسال : اانت أكبر ام رسول الله ؟ فيقول : هو عليه السلام اكبر منى وأنا ولدت قبله . ويدخل معن بن زائدة على الخليفة المنصور فيقول له : لقد كبرت يا معن فيقول معن : فى طاعتك .فلا يلبث المنصور ان يقول : وانك لجلد ، فيجيب فى بساطه : على اعدائك ، فيحاوره المنصور : وارى فيك بقيه ، فيقول معن : هى لك .

اما ابو بكر فكان يذكر الناس بأن كثير القول ينسى بعضه بعضا ، وعمر يرى : ان اعقل الناس اعذرهم للناس ، ويرى ان من لم يعرف الشر أجدر ان يقع فيه ، فاذا واجه عاطفة الحب والبغض: قال : لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا .

* * *

ومن آيات الرأى فى ينابيعنا قول القائل:ان الناس لا يسألون عن العمل فى كم من الوقت فرغ ، ولكن يسألون عن مدىجودته.

* * *

(٤)

ويبدو فى ينابيعنا لون رائع من الوان الفكر هو وضع شعارات للمعانى الانسانية العليا ، كانت امتنا دائما معنية بان تعرف معانى الحزم والمروءة والعقل والمحبة والشجاعة والورع .

وكان نوابغنا واعلامنا يعرفون كيف يضعون العبارات المضيئة لهذه المعانى . اكثم بن صيفى يسأل عن الحزم فيراه : « حفظ ما وليت وترك ما كفيت » وعبد الله بن عمر يسأل عن المروءة فيراها : تقوى الله وصلة الرحم ، اما المغيرة بن شعبة فهى عنده : العفة عما حرم الله واما ابن زيد .. فالمروءة هى الصبر على البلوى والشكر على النعمى ، اما الاحنف فيرى ان المروءة مواساة الاخوان وصدق اللسان .

ويسأل عمرو بن ألعاص عن العقل فيراه : « الاصابة بالظن ومعرفة ما يكون بما كان » .

وتشغل « المحبة » السائلين فيراها يحيى بن معاذ : هى التى لا يزيدها البر ولا ينقصها الجفاء .

ولعل أحدهم كان يذهب الى ابعد من ذلك فيسأل عن دقائق التفاصيل :

سأل رجل يحيى بن أكثم (كمآكل) قال : فوق الجوع ودون الشبع ثم عاد يسأل ..(كمأضحك)قال:حتى يسفر وجهك ولايعلو صوتك فقال الرجل (كم ابكى) قال:لا تمل من البكاء من خشية الله . قال : فكم أخفى عملى قال : ما استطعت ، قال : فكم اظهر منه .. قال : ما يقتدى به .

* * *

وسئل الفضيل بن عيـاض عن « الورع » فقـال : اجتناب المحارم .

* * *

وفى المشاورة يقول قيس بن عاصم :

لا تشاورن مشغولا وان كان حازما ، ولا جائعا وان كـان فهيما ، ولا مذعورا وان كان ناصحا ، ولا مهموما وان كان فطنا فالهم يعقل العقل ، ولا يتولد منه رأى .

والنعمان بن المنذر يتحدث عن العفو عند المقـدرة ، « خير العفو ما كان مع القدرة ، والرفق يمن ، والخرق شؤم » .

* * *

ونحن لا نهمل شأن المال فهو كما يقول الجاحظ اله للمكارم وعون على الدين وتأليف للاخوان وان من فقد المال قلت الرغبة اليه ، والرهبة منه ، ولكنا فى نفس الوقت نطلبه بشروطه على حد قول سعد بن ابى وقاص : ان طلبت المال فاطلبه بالقناعة فانها مال لا ينفد وان نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها ، ومن أبطـره الغنى أذله الفقر .

* * *

(٥)

ولطالما كشفت الكلمة فى تراثنا جوهر النفس ، وطبيعة الخلق ، وملامح الروح ، فان العبارة التى تجرى على اللسان تعطى الدلالة على حقيقة ما يخفيه الباطن من سرائر واحاسيس . فماذا كانت اعماق النفس العربية ؟.

الحسن البصرى يقول « من حاسب نفسه ربح ، ومن نظر فى العواقب نجا ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن حلم غنم ، وما خاف سلم وسعد بن ابى وقاص يقول :

اذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة فانها مال لا ينفد واياك والطمع فانه فقر حاضر وعليك باليأس فانك لا تيئس من شىء قط الا اغناك الله عنه .

ويقول آخر : من عز باقبال الدهر ذل بادباره ـ ومن ابطره الغنى اذلة الفقر ، وأفضل العطيـــة : ما كان من معسر الى معسر ، واذا خرجت الكلمة من القلب وقعت فى القلب .

وقيل : لا خير فى المال بغير الجود ، ولا فى الصدق الا مع الوفاء ولا فى العفة الا مع الورع ، ولا فى الحياة الا مع الصحة .

وقيل : الظفر ماسور بالصبر . والقدرة مقرونة بالحيـــلة . والادراك موصول بالتانى.

وتمر أمامنا صور رائعة للأسماء المجهولة فى تاريخنا ، فهـذا «صاحب النقب»لا يعرف أحد له اسما ، ويبرز معن بن زائده بطلا فى الكرم والسماحه ، لا يشق له غبار ، ولكن رجلا مجهولا يلقاه مرة فيكشف له عن أنه اكثر منه كرما وهو فقير لا يملك شيئا .

يقول معن « لما هربت من الخليفة المنصور خرجت الى الباديه بعد ان اقمت اياما وخففت لحيتى ، وعارضى ، ولبست جبه صـوف غليظة ، قال فتبعنى رجل أسود متقلد سـيفا ، حتى اذا غبت فى البادية ، قبض على خطام الجمل فأناخه ، وقبض على وقال :

ـ أنت معن بن زائدة .

قلت : يا هذا ، اتق الله ، أين أنا من معن ..

قال : دع عنك هذا فأنا والله أعرف بك .

قلت : فهذا جوهر حملته معى باضعاف ما بذله المنصور لمن جاءه بى فخذه ، ولا تسفك دمى ...

قال : هاته ، فنظر اليه ساعة ثم قال : ـ

ان الناس قد وصفوك بالجود فأخبرنى : هل وهبت قط مالك كله ..

قلت : لا ، قال : فنصفه ، قلت : لا ، قال : فثلثه ، قلت لا ، حتى بلغ العشر فاستحييت ، وقلت : نعم .

فقال : ماذاك بعظيم ، انا والله رجل فقـير ورزقى عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته ألف دينار قد وهبتـه لك ووهبتـك نفسه لجودك المأثور بين الناس .

* * *

(٦)

ان عصارة فكرنا تعطى صورتنا وقيمنا وترسم الوجه الحقيقى لامتنا ، وان هذه اللمحات من مفاهيمنا الاساسية التى هى طابع شخصيتنا ، تكشف حقيقتنا وتدفع عنا تلك الحملة الضارية التى تحاول أن تصورنا امة صحراوية ، تؤمن بالغيبيات وتعيش متواكلة، وما كانت صورتنا فى تاريخنا تعطى هذا المعنى فقد كان فينا من يقول لست بخب ولا الخب يخدعنى ، وكان عمر يقول : لو كنت تاجرا ما اخترت غير تجارة ((العطر)) فان فاتنى ربحه لم يفتنى ريحه ، وكانت فينا يقظة ومن كلامنا ((اناة فى عواقبها فوت أحب من عجلة فى عواقبها ظفر)) ، وفى البطولة كان شعارنا ((احرص على الموت توهب لك الحياة)) وكان العز فى نظرنا مرتبطا بالعلم ((كل عز لم يؤيد بعلم الى ذل يصير)) ، وكان معنى الاخوة رائعا سامقا ((اذا نابت اخاك احدى النوائب فاعلم انك قد ابتليت معه)) وكنا نعرف الحزم ونواجه الامر المفاجىء : ((الحازم من اذا نزل به الامر لم يدهش له ولم يذهب قلبه شعاعا)) وكنا نؤمن بانه اذا لم يكن ما نريد فلنرد ما يكون)) ولطالما قال قائلنا)) لسان العاقل وراء قلبه ومن علامة الحمق سرعة الجواب. وقوة الكلمة اذا خرجت من القلب وقعت فى القلب ((وعندنا الاستعانة بالكتمان ، وعلى هذا الاساس قام بناء امتنا ، وسيظل هذا هو ((الاساس)) لقيام النهضة فى كل عصر، ونحن الان نبنى نهضة واعية ،

تجعل من منابعنا هذه اساسا ومقومات لها . لا تتخلف عنها ولا تفضى ولا تتجاهل . فارتباطنا بهذه المنابع اساسى وحتمى،ولا عبرة لما يقال من ان نمذج فكرنا بفكر غيرنا ، وانما العبرة بان يقال ان لنا اصولا وجذورا وينابيع وقيما تبنى « أساس فكرنا » أصلا ثم نحن بعد ذلك لا نتردد فى ان ننظر فى كل ثقافة ونتقبل كل جديد،ونفتح كل النوافذ ، فما تستطيع ثقافة ان تجرفنا ، او قيمة من القيم ان تحولنا ولكنا نستطيع ان نجد فى ضياء العقول وعصارات الثقافات، وروح الفكر الانسانى ما يزيدنا قوة وحياة .

****

ولن يستطيع أحد أن ينتقص من تاريخنا او يغض من قدره ، ونحن لا نقول انه يفضل تاريخ الأمم ولكنا نؤمن بأنه لا يقل عنه، وأن بطولات تاريخنا وصفحاته المضيئة المشرقة قريبة من أيدينا نستطيع ان نستعرضها ، ولسنا نفاخر بها تعنتا ، و لا نكشف عنها فى غرور ، وانما نرانا حيث كنا سادة الدنيا ، ونحاول ان نجد من ماضينا قوة لمستقبلنا ونحن حين نعرض صفحاتنا ، نمتلىء ثقة بقدرتنا وقوتنا وكياننا ، فلا نهتز لكلمة شعوبى أو ظالم او خصم حين يتهمنا أو ينتقصنا .

وفى خلال تاريخنا الطويل كنا أكرم الفاتحين ، وأرحم الحاكمين،وعندما حاولوا السيطرة علينا قاومنا بقوة ولم نستسلم، قاومنا فى الحروب الصليبية وفى غزوات التتار ، وكانت أسماء ابطالنا لامعة تحمل دائما معها صورة البطولة والوفاء وماتزال أسماء خالد وسعد بن ابى وقاص والمثنى وصلاح الدين من أبرز

ما عرف العالم من اسماء الشجعان ، وكان فى بغداد ستون ألف حمام ، يوم كانت أوربا تعيش فى ظلمات العصور الوسطى وكان حيال كل حمام خمسة مساجد وكان فى دجلة ثلاثون الف زورق.

وكان فى قرطبة وحدها مائة وسبعون جارية تعمل فى نقل المؤلفات والكتب النادرة ، وكان فى قصر الخليفة اربعمائة الف كتاب ، ويروى صاحب نفح الطيب ان قرطبة كان بها ٦٠ألف كتاب و ٤٤ فهرسا وبها ٨٠ مدرسة وجامعة يردها الطلاب من انحاء العالم .

وفى قرطبة كان مسجدها يضم الفا ومائتين وتسعين عمودا وأحد عشر ديوانا وواحدا وعشرين دهليزا ومائتين وثمانمائة ثريا يتدلى منها سبعة آلاف قنديل من الزيت .

أما القصور فكانت مجهزة بأنابيب معدنية لتوزيع المياه على الاجنحة ، وكان الماء يجرى دافئا فى أثناء الشتاء وباردا فى ايام الصيف ، وقد اخترع العرب جهازات التهوية الصناعية فى فن البناء واستخدمت لاول مرة فى قصور الاندلس ، وقال المؤرخون انه بينما كانت القصور العربية متاحف للفنون الرفيعة كانت منازل امراء المانيا وفرنسا وانجلترا لا تفضل حظائر الماشية فى شئ فهى بلا نوافذ او مداخن .

أما الجامعات فهنا الازهر ودار الحكمة وهناك الزيتونة فى تونس « والقرويين » فى المغرب وجامعة قرطبة ومدرسة سالرنو الطبية فى جنوب ايطاليا .

وكانت صناعة الورق من أهم ما أسديناه لأوربا .

وفى ميدان الهندسة أقاموا الخزانات على الأنهار ، وبرعوا فى النحت على الجدران والحفر على الخشب . وهم أول من استخدم حدائق الحيوان .

وكان فى بغداد عام ٩٣١هجرية ثمانمائة وستون طبيبا مرخصا ، وان أطباءهم درسوا التشريح وكتبوا عن طب العيـــون ، وعرفوا المرقد (المخدر) ، وان الرازى كشف طـــرقا جديدة فى العـــلاج كمراهم الزئبق واستخدام أمعاء الحيوان فى التقطيب . وهم أول من فتت الحصى فى المثانة وسددوا الشرايين النازفة ، وكشـــفوا النقاب عن الدورة الدموية ودودة الانكلستوما .

وبرعت أسماء الرازى أعظم الأطباء والبيرونى أعظم الجغرافيين وابن الهـــيثم أعظم علمـــاء البصريات . وجاء ابن حيـــان اعظم الكيمائيين والفارابى امام الفلسفة والخوارزمى وحنين بن اسحق عميد علم الفلك .

وكان لنا الف وخمسمائة سفينة تصيد اللؤلؤ فى البحـــرين وخليج العرب ووصلنا فى البحر الى التركستان الروسية والصينية وبلاد المغول والصين والى شواطىء آسيا الشرقية ، واكتشـــفوا جزائر الخالدات (كناريا) غرب شمالى افريقية ومخروا عبـــاب المحيط الاطلنطى الى مسافات بعيدة وتجولوا بقوافلهم فى السودان والصحراء الكبرى حتى بلاد غانة ، وأنشأنا المراصد العـــديدة ،

واخترعنا آلة الاسطرلاب الدقيقة وابن الهيثم أول من كشف فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) حقيقة انكسار أشعة الضوء وقال الجاحظ ان العرب عللت ملوحة البحر وعذوبة المطر واحتراق الحطب واحتراق الزيت فى المصباح وصعود الهواء وانحدار الماء .

وذكر فولتير أن أول ساعة عرفت فى أوربا هى الساعة التى أهداها هارون الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا عام ٨٠٧ .

***

فاذا ذهبنا نستقصى الاعلام والنوابغ وجدنا الرازى الذى اكتشف حامض الكبريتيك والكحول وابن سينا الذى فتحفتوحا فى الطب وابن خلدون الذى وضع فلسفة التاريخ والزهراوى أعظم جراح والغزالى قريع سبنسر .

***

فى البحر صنعنا الاساطيل الحربية ،حيث تقام الابراج والقلاع لحمل المنجنيقات التى يرمى بها النفط المشتعل على الاعداء وركبنا النار اليونانية واستعملنا القسى والسهام والمجانيق .

ومن اعلامنا يسر بن أرطاه وجناده بن اميه ، والعلاء بن الخضرمى ومعلم كاناكا الذى رافق فاسكودى جاما فى رحلته .

واحمد بن ماجد علم أعلام البحر ، صاحب أعظم مؤلف فى أمور الملاحة وهو ليون الطرابلسى الذى اشرف على غارات بحر الارخبيل وفتح انطاكية والقاضى اسد بن الفرات فاتح صقلية وابو عمر حفص بن عيسى فاتح اقريطش .

* * *

وفى مجال الرحلة « الادريسى » فى كتابه نزهة المشتاق فى اجتياز الافاق ، وابن بطوطة الذى اكتشف المحيط الهادى ، وابى الفداء وابن جبير والمسعودى المؤرخ الجغرافى الذى طاف العالم الاسلامى شرقا حتى الصين والهند وصاحب مروج الذهب وابو الحسن السائح الهراوى ، واليعقوبى الذى سافر من السند الى الاندلس وابن حوقل الذى أمضى ثلاثين عاما فى الطواف من بغداد الى الاندلس .

(٧)

« البناء على الاساس »

ان امتنا تبنى على هذا « الاساس » فعلى قاعدة من هذه القيم والمقومات قامت نهضتنا فى الماضى ، وتقوم اليوم ، فنحن لا نذكر تاريخنا لنعيش فى القديم ولكنا نحاول دائما ان نربط بين ماضينا وحاضرنا ، فان هذا الماضى الناصع لابد أن يعطى امتنا قوة على الانشاء والبناء فى ظل خطة واضحة ، فلا تستطيع المذاهب والآراء أن تمسخ طابعنا أو تقضى على كياننا .

ولقد عاش الغرب يجرب فى المذاهب والعقائد دون ان يهتدى الى قاعدة يبنى عليها شخصيته ، اما نحن فلا حاجة بنا الى هذه التجارب وقد أحس سدنة الحضارة أن مادية الحضارة تكاد تودى بها وان لدينا ذلك المزيج العجيب من المادية والروحية وانه لابد للقضاء على هذا الصراع الداخلى الممزق من استلهام روح الشرق .

فالحضارة الغربية الآن تحتضن النظرية العنصرية التى ترى ان الرجل الأبيض هو السيد ، وأنها لم تستطع ان تطبق حقوق الانسان ، ولم تستطع أن تحقق مجتمعا قويا متماسكا فى داخل بلادها ، واثارت روحا من القلق الفكرى فى العالم كله ، كان نتيجته بروز ما سمى بأزمة العصر ، فقد نما عقل الانسانية نموا كبيرا بينما ظل ضميرها قابعا مجمدا ، لم يستطع الانطلاق الى الآفاق فى شئون الروح والفكر ، وقد غلبت الفلسفات المادية ، ودعوات الجنس والنزوات على مجال الفكر كما غلبت دعوات المتاع والترف والترفيه على قيم الفكر نفسها ولونت الحياة والثقافة بطابع منهار .

وقد عاش الغرب على حد تعبير مفكريه ، مادى النزعة ، حتى ماتت فى نفوس أبنائه عواطف الرحمة الانسانية وهيمن على الدنيا بأسرها بمعارفه وزخارفه وكشوفه ومن أثر ذلك يجرفهم الآن ذلك التيار الضخم من القلق والاضطراب النفسى .

فاذا أضيف الى هذا ماجد من كشوف القنابل الذرية والهيدروجينية والصواريخ الموجهة أمكن تصور مدى الهوة التى قد تنحدر اليها الحضارة .

فالحضارة العصرية قد انحرفت برسالة الحضارة الاساسية التى هى رسالة الانسانية فهى بالرغم من مناقضتها لأصول الاديان ، فان فقدانها المعنى الانسانى بايغالها فى المادية المتعصبة

التى تقوم على اساس التفريق بين الاجناس والالوان والسيطرة عن طريق القوة والغضب والتآمر على الامم ، والتسلط على مقدرات الشعوب ، ومن خلال حربين عالميتين كبيرتين لم تعرف الانسانية مثيلا لهما كشفت الحضارةعن تحول خطير فى النفس البشرية فقد أعطتها صورة الموت البشع والتدمير وروح الانانية والاسراف فى اللذات والاندفاع نحو المتاع الفردى واحتقار المثاليات والمبادىء والقيم — تقول الكاتبة الفرنسية مدام سنت بوانت : ان الغرب قد قصر عن القيام بالمهمة التى زعم انها القيت على عاتقه فى الاجيال الأخيرة وهى نشر تعاليم الانسانية حين اتخذ وسيلة الانانية وحب الذات وكان اختياره لها جريمة وكان ذلك سبب ضياعه واضمحلال نفوذه وان الغرب بالتجائه الى الوسائل التى لا تقرها الانسانية قد اثبت أن مدنيته أفلست .

وبهذه العوامل المادية المغرقةفى المادية انحط مستوى الحضارة واوشكت كشوف العلم نفسه أن تكون وبالا عليها وقضاء على صروحها الضخمة .

وقد نادى علماء الغرب وفى مقدمتهم « برتراند رسل » و « آرنولد توينبى » وغيرهما بأن الحضارة وشيكة على الانهيار وأن وسيلة انقاذها فى أن تتخذ لها ستارا من روحانية الشرق ومعانيه الانسانية العليا .

* * *

ولاشك فى أن أمتنا اليوم، وشرقنا هو الذى يحمل أمانة كبرى للانسانية فى عصارات فكره ومفاهيمه للحضارة ، تستطيع أن تلعب دورا كبيرا فى هذا المجال .

وها هى ذى أمتنا تنتزع عنا غلافات التأخر والضعف وتأخذ بحظ كبير فى اسباب النهوض وتجرى فى طريق الحضارة لتعوض ما فات ، ولاشك فى انها ستستطيع فى سنوات قليلة ان تبرز وتقف فى الصفوف الأولى قدرة وقوة وعلما واختراعا وحضارة . هنالك يبدو فارق واحد بينها وبين هذه الامم التى كانت قد سبقتها فى طريق الحضارة قرنا او قرنين .

هذا الفارق هو ما عندها من ينابيع الفكر والروح والقيم .

هذا هو العطاء الوحيد الذى تستطيع أمتنا أن تقدمه للانسانية وأن تغير به وجه الدنيا ، وأن تعطى به الحضارة مايحول بينها وبين السقوط فالحضارة عمل بشرى ضخم ، ساهمنا فيه نحن من قبل وحملنا أمانته طويلا ، وكان لنا دورنا الضخم فى تطويره ، واليوم يجيء دورنا فى حمل هذه الأمانة مرة أخرى .

وما من تاريخ أمة انطبق على مقوماتها وقيمها ، كما ينطبق تاريخنا فما من كلمة قلناها الا آمنا بها ، وطبقناها ، أما غيرنا فقد حمل الشعارات وجعلها واجهة خادعة بينما أخفى وراء قفازاته الأظافر الملوثة بالدم .

ومازالت قيمنا الثقافية والفكرية والروحية تعيش ، انها لم تمت ابدا . لقد غشى عليها التراب بطبقة من الصدأ ، ولكنا لم نلبث أن تيقظنا وكشفنا عن جوهر فكرنا هذا الفكر الذى حاربه الغــرب وجند فى سبيل هدمه وتدميره قوى كبيرة ، ولكنه بالرغم من ذلك استطاع أن ينفذ الى القلوب والعقول ، فى الغرب نفســه ، وان يكون تيارا جديدا من أجل غزوة جديدة للفكر الانسانى .

فعن طريق كتابات الغرب الظالمة استطاع كثير من المنصفين أن يعرفوا جوهر هذا الفكر فى عظمته وقوته وصدقه وان يكتشفوا أعماقه فيكتب جوستاف لوبون كتابه « حضارة العرب » ويخط سيديو فصوله عن عظمة هذه الأمة ، ويرسم توماس كارليل هذه الصورة الرائعة عن البطل فى صورة نبى وفى عشرات من كتابات اعلام الفكر الغربى بدت روح الانصاف والتقدير .

فقد عادوا مرة اخرى الى الاعتراف بفضلنا على الحضـــارة وأثرنا فيها ووجدت قيمنا الاجتماعية وقيمنا الروحية بالذات تقديرا واضحا حيا ، ووجه الى تشريعنا النداء بأنه خير ما يقدم للانسانية.

يقول مسيو ليون روش السياسى الفرنسى الذى أقام ثلاثين عاما فى المغرب : لم أذكر شيئا من قوانيننا الوضعية الا وجـدته عندهم وان الدين قد ملأ نفوس هؤلاء الناس شـجاعة وشـهامة ووداعة وجمالا وكرما ، بل وجدت هذه النفــوس على مثــال ما يحلم به الفلاسفة من الخير والرحمة ، ولقد وجدت عنــدهم حل

المسألتين الاجتماعيتين اللتين يشغلان العالم : الأولى فى الاخوة وهى أجمل مبادىء الاشتراكية والثانية فى فرض الزكاة وتخويل الفقراء حق أخذها غصبا .

***

وفى مجال الاعتراف بفضل امتنا يقول ديفونويب : يجب ان نعترف بأن علوم الطبيعة والفلك والفلسفة والرياضيات التى فشت فى اوربا منذ القرن العاشر مقتبسة من مدنية العرب .

ويقول جوستاف لوبون : « هل من الواجب ان نذكر ان العرب ، والعرب وحدهم هم الذين هدونا الى العالم اليونانى واللاتينى ، وقد كانت المدنية العربية من أدهش ما عرف العالم ، وان جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة بكتب العرب خاصة وان العرب هم الذين مدنوا اوربا فى المادة والعقل والخلق » .

بل ان البعض قد ذهب فى الانصاف الى المدى ، فقال كلود فارير الفيلسوف الفرنسى : ان هزيمة العرب فى معركة بواتيه قد أخرت المدنية الغربية ثمانية قرون الى الوراء فلو ظفر العرب يوم « بواتيه » لحملوا مدنيتهم الى الغرب ولما طالت ايامه فى الجهل المطبق .

ويقول سبنسر فاميرى:اذا ذكرنا ان العرب كانوا طوال قرون ثمانية فى الاندلس مستودع أعظم العلوم فى ذلك الحين فانه بوسعنا ان نعتقد بأن مادة غير محدودة من التاريخ والعلوم والاجتماع والحقوق وصلتنا من تلك الارض المقدسة .

واذا كانت الحضارة الغربية بنفوذها الفكرى لم تضعف من مقومات امتنا فى مجال القيم الروحية والدين فان عالما كجوستاف لوبون ، لا يجد ما يقوله لشاب مصرى هو توفيق يزدى الذى زاره عام ١٩١٦ فى منزله بشارع افينوبباريس الا ان يقول له :

« ان سبب انحطاط الشرق هو تركه روح الدين وتشبهه بالعقائد الباطلة فان قوة الدين قوةادبية لا يستهانبها ومن الواجب عليكم أن تأخذوا من ديانكم ما يوافق روح العصر وان تحافظوا على تقاليدكم الحسنة وعاداتكم المرضية وان الشعب الذى يريد الرقى لا يستطيع ان يقطع الصلة التى تربطه بماضيه » .

❋ ❋ ❋

ولقد تنبأ عشرات من هؤلاء المنصفين بان دورنا فى قيادة فكرنا للانسانية أمر طبيعى وقادم على الطريق .

ولن يتحقق لنا ذلك الا باسترداد ثقتنا بعظمة ينابيع فكرنا وعظمة تاريخنا وقوة شخصيتنا فان هذا هو السبيل الحقيقى لكى يتحقق لنا دورنا فى توجيه الانسانية الى الخير والحق والجمال وانقاذ الحضارة .

الدار القومية للطباعة والنشر